يحيى الطاهر عبدالله

حكاية بزخارف ...

كي تنام أيها الأمير

كان ابوه يملح اللفت ويلونه بزهر العصفر ويبيعه ـ تلك « اميري » أول ضربة على قفا عباس من دنيا ظالمة بنت كلب والت الضرب بغير رحمة :

طلق أبوه امه وكان اسمها أسماء بعد ان أنجب منها سبعةماتوا الواحد بعد الواحد ـ وبقى عباس ليرى امه العجوز ممزقة الثوب حافية تجمع وسخ البهائم وتبيع للكل وقود الافراد حتى للكارهمادامت نبيع ومادام يدفع .

وتزوج ابوه من بنت بائعة كرشة اسمها صالحة فكانت شديدة القسوة عليه لانه مولع بالحرب وفرقعة البمب ـ بينما البيت حجرة ضيقة وصالة ضيقة .

ومن بنت بائعة الكرشة ـ التي اسمها صالحة ـ انجب ابوه البنت وسماها غالية وكانت كأمها مليحة الوجه مدورة البدن حلوة لسان ، كلامها أثواب من حرير هفهاف مطرز بالترتر الغماز ناعم نعومة بطن حية خداعة تلدغ : لقد رضعت غالية من ثدي امها اللبن الاسود ـ اما عباس « يا اميري » فكان عليه ان يناديها يا اختي وان ينادي امها يا امي .

يا لها من حياة دون ، يا لتلك الايام من ايام ، كل يوم بليلة طويلة ونهار طويل ، وجلد عباس جلد ادمي ، وجلد الادمي لم يكن في يوم من الايام جلد جاموسة بليدة ، كما ان الآدمي لا يملك قوة ثور نطاح حتى يغضب غضبة ثور نطاح ، وأنت عليم بل أنت اعلم الناس « يا أميري » ان لكل ليل اسود نهاره الابيض ولكل النهارات السوداء لياليها البيض ـ كذاالصغار أبناء الفقراء يكبرون فيحطمون الزجاجات ويخرجون لدنيا الشوارع بملابس الحيوان رجالا يلتقطون الرزق بمناقير الطير : خطافون سفهاء جهلة .. يتجنبون النور الفضاح .. قتالون لا يقتلهم الا العشق .. غايتهم الفوضى واقلاق المدن الآمنة ـ لهذا نبغضهم الحكومات وتعاديهم الشرطة .

الى هؤلاء « اميري » كان لابد أن ينتمي عباس لما قال لنفسه « الشارع افضل من البيت ألفمرة » الا أن عباس اختار ـ بتوفيق من الله ـ ثوب الثعلب الذي يموت حين تريد منه أن يموت ـ بهذا : نال رضا حلواني فعمل صبي حلواني ، ولما انتهى اجل الحلواني مات الحلواني فبكاه عباس لينال عطف صاحب مقهى كان صديقا للحلواني ، وبالمقهى قضى عباس السنوات وتدرج من مرمطون الى صبي جرسون وعرف العاطل والباطل وصبية الورش والمخبر وشارب الكحل وباعة الصحف والصاحب الذي يشتم صاحبه من خلف ظهره وهذا الذي لو غضب لحطم الكراسي وقلب الطاولات .

من هنا ـ سيدي الامير ، من مقهى ببابين كل باب يطل على حارة صار لعباس ثلاثة أثواب : ثوب ثعلب ماكر وثوب قرد نطاط وثوب قط له سبعة ارواح ، يخلع هذا الثوب ليلبس هذا الثوب أو ذاك حتى جاء يوم وقفت ـ هناك بالشارع ـ عربة بحجم مركب وعلى شاكلة اوزة ، وهبط رجل بملبس حسن يخطر كأنه يمشي فوق ماء ودخل حارة أفضت به الى حارة الى ان بلغ المقهى وقد ادركه تعب فجلس وطلب كوب يانسون رغبة منه في ملاطفة الروح الشعبية ، جاء عباس ورحب واختفى بزعل واقبل يثقر على الصينية بالملعقة نقرات لو سمعتها راقصة طلقت الرقص لعادت للرقص غير أسفانة . قال الرجل المبتهج وكان غنيا لعباس « اترك المقهى وتعال معي .. » وصرخ عباس (انا) .

ذلك ما حدث « يا اميري » ولك ان تصدقني ولك أن تتعجب ، لكنها دنيا بنت هوى تدير ظهرها لسنين ثم تقبل بوجه ضاحك وجيد مثقل بالاجراس .

هناك ببيت الغني الغني تعلم عباس حروف الهجاء الثماني والعشرين ـ هكذا سريعا ـ لينظم من الحروف العقود من حرز يلونه ويزين عنق ومعصمي ولي نعمته الذي علمه كيف يمسك السكينة بيمينه والشوكة بيسراه . هذا بيتما الغني بحق يتناول افطاره وغداه وعشاه ـ بصحبة عباس ـ بالنادي : لحوم مقلية ولحوم مشوية .. بطوديوك رومية وسمك ودجاج وفاكهة أيضا ونبيذ ، وما بين الغداء والعشاء من وقت يقضيانه معا ـ الغني وعباس ـ بحمام السباحة مع العراة من الرجال والاولاد والنسوة والشابات .

ما مر شهران « يا اميري » حتى تحول عباس الى شخص يجهله كل من عرفه : طبع رقيق ـ واصابع رقت ما شاء الله وصار لها ملمس الحرير ـ بروح شفافة تعشق كل فتاة بشعر مبلول .. وولع لاحد له بالتصاوير والرسوم والموسيقا وغناء المغنين ولسينما بحدائق الشرق تعرض الافلام بلون وصوت .

هنا « اميري » دعني أحكي لك حكاية فيلم شافه عباس تسع مرات واعجب به الاعجاب كله :

« ناس عراة يلبسون الريش يسكنون غابة يقتلون الناس بنبال مسمومة لانهم لا يسكنون معهم في الغابة (فجأة) يأتي ناس يلبسون الملابس ويركبون الخيل ويحملون البنادق يطلقون الرصاص من بنادقهم على العراة ليموتوا جميعا ـ الا كبيرهم صاحب الريش الكثير الذي راوغ الرصاص ونط (فجأة) فوق ظهر حصان اسرع من موتوسيكل واسرع حتى من نعامة ، وها هو الوغد (فجأة) يخطف الفتاة الرحيمة التي عالجت جروح الرجال من النبال المسمومة وطبعت على خد كل منهم قبلة ـ ما عدا الفتى الوسيم فقد اعطته فمها ليشرب منه ماء الحياة لان جرحه كان قتالا ، وها هو الوسيم يطارد بحصانه لابس الريش الكثير ـ ليرد الفضل لصاحبة الفضل ـ لكن ما كاد يلحق بالوغد حتى سقط حصانه (فجأة) في حفرة ماكرة ذات عين كبيرة سوداء ، والوغد يسوق الفتاة كمالو كانت معزة ، لا يدري عباس ان كان الوغد سيذبحها أم سيحلبها ـ الا ان عباس صرخ في الوسيم (هنا) واشار عباس الى كهف يختفي خلف شجر قصير مخادع تشابك ، هذا بينما الوغد مزق الثوب الطويل (فجأة) لترى كل العيون الراغبة في الوغد : شجرة انغلقت ـ بعد أن شبت فيها النار الحمراء ـ الى ساقين من جمر ، صرخ عباس في الوسيم (اسرع) وصرخ في الفتاة (قاومي) فأمسكت هي ببلطة ، وتقدم الوغد وواجه الكل بعيني مارد مخيف فقالوا « لا دخل لنا » لكن الفتاة رمز المقاومة ما تزال تمسك بالبلطة : عارية الفخذين ـ ولا ملامة عليها . (فجأة) دخل الوسيم الشجاع وقتل الوغد ـ حتى لا تصير الجميلة قاتلة .

انتهى الفيلم ـ يا اميري ـ بقبلة طويلة تحبب الانسان منا في الافلام وتجعل كل صناع الافلام أبناء زماننا ينهون افلامهم بالقبل التي تحببنا في الافلام ، بعد هذا الفيلم ـ وهذا ما جعلني أحكي لك « يا اميري » حكاية هذا الفيلم : أتقن عباس الحاذق صناعة الكلام ففتل من الكلمات حبالا تصلح لشنق أدمي وربط دابة وتقييد وحش واغلاق طريق ـ كما افلح في كتابة حكاية مشوقة عن رجال يعاركون الحيوان المفترس ويهزمونه ويصنعون من جلده النعال التي يلبسونها.

ذلك ما كان ، بينما ـ انا ـ سيدي الامير : نسيت اخبارك بخبر الرجل الفني الذي كان يسكن بيتا من اربعة طوابق بكل طـــابق اربع شرفات ، وكان بالبيت حديقة بها شجر لا يثمر واشجار ورد مزهرة تنشر العطر ، وكان الرجل الفني يحب مثله في عفة جعلته يلبس قناعا : لا يمس احدا ولا يدع أحدا يمسه ـ فقط يحب ويذبـل كما تفعل زهرة النرجس المحبة لنفسها وللماء . تلك كانت حاله مـع عباس حتى ادركه وادرك عباس اليوم الذي تحكى من اجله الحكايات وتنشد الاناشيد ويجن من يجن من بني الانسان :

كانت بالطابق الرابع للعمارة المقابلة ورآها عباس وقال « يا ايها النور » فاغلقت هي باب الشرفة وغابت ، وأشرقت في اليوم الثاني وكان يوم ثلاثاء فقال عباس « يا ايها النور » ومضت هي غاضبة ولـم تغلق باب الشرفة واحتجبت يوم الاربعاء لتطل يوم الخميس وبـدت كما لو كانت غاضبة ولما هم عباس بفتح فمه ادارت ظهرها وتكرر هذا منه ومنها وفي اليوم الذي يستريح فيه المسيحي اطلت بوجه هو الازاهير ومرت كفها على شفتيها ونثرت في الهواء زهرتين شم اريجهما عباس فداخ وأفاق وطالبها بلقاء عاجل « في النادي » فهزت رأسها رافضة ورمت على جبينها من شعرها خصلة وقال عباس الملهوف « بسينما حدائق الشرق » فرمت هي رأسها للخلف رافضة وأعادت خصلة الشعر الى مكانها وفتح عباس فمه واغلقه لما حركت يدها وأشـارت الى حديقة بيتهم ورسمت الشجر ورسمت الغروب (آخ ، ليت اللقاء ما تم تحت الشجر الذي يشتعل بالنور اذا ما داهم الغروب بيوت السادة . آخ ، يا اميري ، كان الرجل سيدا وكان فاضلا وكان كهـلا احتاط لحماية عرض زوجته الخامسة الحلوة من طيش يتملك نفس كل شابة حلوة ومن ضعف قديم في طبيعة الانثى ومن أحابيل السفهاء من مثل عباس وغير عباس : سور البيت وحصنه بالحديد والسـلك والشجر والاجراس والكلاب السود والطهاة السود والخدم السود).

وكان عند السيد الكهل « اميري » عصا من العاج يهش بهـــا وبها يجلد ـ تجعل كل من يراه يخافه فيحترمه ويفسح له الطريق ان كان ماشيا يتريض أو راكبا عربته التي يسوقها سائق بسوط . هكذا « اميري » بات من المقدر لعباس ان يقع صيدا يتوجع ويستنجد بالله في السماء وبرحماء الناس على الارض ، حتى قيض الله له ذلك الشرطي فجره للمخفر سارقا لا عاشقا ، وخرج من المخفر الى مستشفي يصحبه شرطي فقد ثبت أنه سارق لا عاشق ، ولما طابت جروحه وجد نفسه حيوانا في قفص من حديد ورجل هناك خارج القفص ـ لا يعرفه ـ يسبه . الرجال جادون بوجوه صارمة ليسوا الاسود كالقسس يسمعون من فوق منصة عاليةفيهزون ادمغتهم ويهمهمون وكبيرهم امسك بمطرقة: قرع بها لما تجاوز الرجل الذي يسميه عباس الحد فسب أم عباس والحلواني وصاحب المقهى ، أحنى الرجل الشتام رأسه وقال انهم ـ ام عباس والحلواني وصاحب المقهى ـ زرعوا بذرة الشر السوداء في نفس عباس فلما مد له السيد الكريم يده الكريمة عضها عباسفأدماها ودمر حياة صاحبها الغني الخير الذي أصيب الان بصدمة قد تجعله ـ وقد كان عباس بالنسبة له بمثابة الابن ـ مطيعا لاوامر الطب حتى نهاية عمره : يشرب اللبن الساخن مخلوطا بالويسكي وحب الجهان ـ مطلقا هو الغني الفني كل طيبات الدنيا الزاهرة وهي كثيرة كما يعلم سيدي القاضي وسادتي القضاة الافاضل .

ومن عجب مولاي الامير ـ ان الرجل الشتام قص ادق التفاصيل في حياة عباس بما يدلل على نفوذه وسعة اطلاعه في الكتب والملفات السرية الكثيرة التي دونت فيها سيرة عباس وغير عباس من بني الانسان.

وبعد « اميري » فقد بلغتك سيرة الكل ـ ها انا انهي على الباقي من سيرة عباس : حمته سنه الصغيرة من عقوبة السجن فهو بعد حدث ـ كما قال القاضي ـ رغم ما شاف لا يفقه من امور الدنيا قـــدر خردلة ، ليوكل شأنه اذن لاصلاحية تربيه وتهذب روحه وتعيد خلق الانسان فيه من جديد .

تمالك عباس نفسه فلم يصرخ : سمع الحكم الظالم الصادر من ناس لا يعرفهم بايعاز من رجل شتام لا ريب مأجور من زوج المحبوبة الجميلة التي لن ينساها عباس ـ فالحب لا يموت هكذا سريعا كما ان مقادير الناس لا شك ليست بأيديهم فها هو عباس الرجل يعامـــل معاملة طفل لتصير حياته المقبلة بالاصلاحية بأيدي بشر في الغـالب الاعم كالكل قساة لا يرحمون ، ويفرض انهم رحماء فلا نبيذ عنـــدهم ولا لحم ولا تصاوير ولا موسيقا ولا شرفات ولا حمام ساخن ولا سينما حدائق الشرق تلك التي تعرض الافلام بلون وصوت .

نعم ـ لا انت ولا حتى انا كنت أتوقع تلك النهاية الظالمـــة لعباس ـ يا اميري .

القاهـرة

صـــدر حديثاً

الكتابة في لحظة عري

للشاعرة والكاتبة الجزائرية

احلام مستغانمي

صـــوت جريء من أرض الجزائر ، يفضـــح بلغـــة متوترة شـــديد الايحاء آفات المجتمع العربي بين الجزائر والرباط وعمـــان والقاهـــرة وبـــيروت ... وذلك بأســـلوب ذاتي فرديّ وموضوعي انســـاني في آن معا ، ويعبر عن همـــوم الجيل الجديد على صعيد الحس العاطفي والفكر والواعي .

٣٠٠ ق.ل

منشورات دار الآداب ـ بيروت